والذى يستخلص من ذلك كله أن نقل اللغة لم يعتمد على المشافهة فقط ، بل اعتمد أيضاً — وبدرجة كبيرة — على الكتابة والتدوين ، فما شأن ذلك بغلبة الشعر على النثر فى النحو ؟

الذى أرجحه أن المادة اللغوية التى وصلت الرواة والنحاة — عن طريق التدوين أو المشافهة — كان معظمها من الشعر لا من النثر .

فقد كان الشعر — كما روى عن عمر بن الخطاب — علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، وهذا العلم بهذه الصفة كان جديراً بالعناية به وتدوينه .

هذا إلى أن الشعر وحده استخدم فى الغناء والحداء ، لأن الطنطنات والحركات والسكنات لا تتناسب إلا بعد اشتمال الوزن والنظم عليها ، والغناء أحد المظاهر الاجتماعية الهامة لدى الناس فى كل العصور ، ولنا أن نعرف مقدار شيوع هذا المظهر فى بادية الحجاز مع بداية العصر الأموى ، لنفهم ما أداه من خدمة لنصوص الشعر من حيث العناية بها حفظاً وترديداً ونقلا .

كل هذا وغيره يؤيد ويؤكد ما نحن بصدده من أن مادة اللغة التى وصلت إلى النحاة فاعتبروها أهلا للثقة كانت من الشعر أكثر من النثر ، وما كان لهم إلا أن ينتفعوا بما هيأت الظروف لهم الانتفاع به .

إن الصبغة الشعرية فى النحو العربى تسرى فى مسائله عموماً سريان الدم فى العروق وهى مسئولة عما تعانيه قواعد النحو من اضطراب ، ولنا أن نتصفح مثلا « شرح الأشمونى » فى أحد أبوابه من غير اختيار ، وسيتأكد لدينا أن الشعر كان عاملا مهماً فى توجيه القواعد والآراء والتخريجات الذهنية المجهدة .

لكن العلماء لم يقتصروا فى « النقاوة والصفاء » على ذلك فقط ، بل